المحور الثالث:

المذاهب العلمية في تفسير الظاهرة الاجرامية

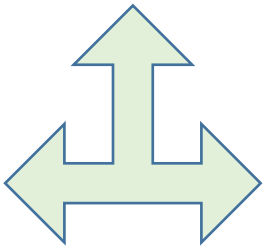

المحاضرة الأولى:

المذهب الفردي في تفسير الظاهرة الاجرامية

المحاضرة الثانية:

المذهب الاجتماعي في تفسير الظاهرة الاجرامية

المحاضرة الأولى:

المذهب الفردي في تفسير الظاهرة الاجرامية

يستند أنصار الاتجاه الفردي في تفسير الظاهرة الإجرامية، إلى أن الجريمة تقع استناداً إلى وجود خلل في تكوين الشخص هو سبب دفعه إلى ارتكاب الجريمة، هذا الخلل التكويني نجده عند المجرمين فقط دون سواهم، وهذا الخلل في تكوين جسم المجرم قد يكون خللاً عضوياً أو بدنياً كما قد يكون خللاً نفسياً، ولذلك فقد ظهرت العديد من النظريات التي تفسر السلوك الاجرامي، سواء استناداً إلى الخلل العضوي أو استناداً إلى الخلل النفسي، ومع ذلك سوف نتعرض لأهم نظريتين قيل بهما في هذا الخصوص؛ النظرية الأولى عضوية والأخرى نفسية.

1-النظرية العضوية (لومبروزو)

جاء بها أنصار المدرسة الوضعية في إيطاليا، حيث أوعزت هذه النظرية الجريمة إلى وجود خلل عضوي في تكوين المجرم، ومع ذلك لم يغفل أنصار هذه النظرية الجانب النفسي في تكوين المجرم. لذلك سنقتصر في دراستنا على النظرية التي جاء بها لومبروزو حول تفسير الظاهرة الإجرامية

أ) – مضمون النظرية:

سيزار لومبروزو هو طبيب شرعي في الجيش الإيطالي، ثم أصبح أستاذا للطب الشرعي في إحدى الجامعات الإيطالية، حيث أتاحت له طبيعة عمله كطبيب وكضابط

بالجيش الإيطالي وأستاذا بالجامعة، أن يقوم بفحص عدد كبير من الجنود والضباط الايطاليين المجرمين منهم والأسوياء، وذلك خلال فترة خدمته بالجيش.

كما قام لومبروزو بتشريح عدد من جماجم المجرمين ومقارنتها بجماجم غير المجرمين فلاحظ في بداية أبحاثه وجود تجويف غير عادي في مؤخرة جمجمة أحد المجرمين من قطَّاع الطرق، فشبهه بالتجويف الذي يوجد لدى القردة، هذا ما دفعه لمواصلة أبحاثه في الميدان، فقام بفحص 383 جمجمة لمجرمين بعد وفاتهم وقام بمقارنتها بجماجم أشخاص مجرمين احياء.

ومن بين الأبحاث التي قام بها لومبروزو أيضا، فحصه لأحد المجرمين الخطرين الذي اتهم بقتل ما يقرب من عشرين امرأة بطرق وحشية، وخلص لومبروزو إلى أن هذا المجرم يتميز بخصائص تشبه خصائص الإنسان البدائي.

بعد هذه الأبحاث والدراسات المعمقة في التركيبة العضوية للمجرمين عمد لومبروزو إلى جمع أفكاره في كتابه الشهير الذي أصدره سنة 1876 تحت عنوان" الإنسان المجرم " خلص فيه إلى أن:

- الإنسان المجرم يتميز بشذوذ في تكوينه العضوي ويتميز بخصائص بدنية لا تتوافر لدى غير المجرمين، ومن بين ما لاحظه على المجرمين: عدم الانتظام في شكل الجمجمة، ضيق في الجبهة، ضخامة في الفكين، شذوذ في تركيب الأسنان، بروز في عظم الخدين، فلطحة أو اعوجاج في الأنف، الطول أو القصر غير العادي في الأذنين، الطول غير العادي في الأطراف أو الأصابع، القصر في القامة، غزارة في الشعر.

واعتبر لومبرزوز أن المجرم الذي تتوافر فيه هذه الخصائص فإنه يشبه الإنسان البدائي، وهذا دليل على تأثر لومبروزو بنظرية داروين عن التطور والارتقاء.

- أن المجرم ينفرد ببعض السمات النفسية التي يستدل فيها بوجود خلل في التكوين النفسي لدى هؤلاء المجرمين؛ كضعف الإحساس بالألم، غلظة القلب وقسوة

المشاعر، انعدام الشعور بالخجل، واستدل لومبروزو على ذلك مما لاحظه من كثرة الوشمات والرسوم القبيحة التي يرسمها المجرمون على أجسادهم.

وخلص لومبروزو على أن النسان الذي تتوافر فيه هذه الصفات العضوية والنفسية فإنه حتما سيكون مجرما، وأطلق عليه اسم " المجرم بالميلاد أو المجرم بالفطرة".

ثم اكتشف بعد ذلك لومبروزو أنماطا أخرى من المجرمين لا يمكن إدراجهم مع نمط المجرم بالميلاد، ما دفعه إلى تعديل الطبعة الأولى من كتابه "الانسان المجرم"، حيث لاحظ أن هناك طائفة من المجرمين أطلق عليهم اسم "المجرم الصرعي" وهو المجرم الذي يعاني من مرض الصرع.

2 –**تقييم النظرية:**

يعود للومبروزو الفضل الكبير في التنبيه إلى ضرورة دراسة المجرم من الناحية التكوينية سواء تركيبته العضوية أو النفسية، حيث تميزت هذه الدراسة بالطابع العلمي لاعتماده على أساليب البحث العلمي في دراسة الظاهرة الإجرامية كالملاحظة والفرضية والتجربة للوصول إلى النتيجة لكن رغم ذلك تعرضت هذه النظرية لانتقادات منها:

– اسهبت هذه النظرية في وضع صفات عضوية ونفسية تميز المجرمين عن غيرهم وأرجعت سبب الظاهرة الاجرامية إلى توافر هذه الخصائص لدى الشخص المجرم. لكن الواقع لا يعكس ذلك فمن الصعب من الناحية العلمية الربط بين توافر هذه الخصائص الجسدية وبين الإقدام على ارتكاب الجريمة، وهي حالات شاذة لا يمكن القياس عليها لأنه تبين وجود هذه الصفات عند أشخاص أسوياء.

– أغفلت هذه النظرية الدور الذي تلعبه العوامل الخارجية المحيطة بالفرد والتي تدفعه لارتكاب الجريمة، واكتفت بتفسير الجريمة استنادا إلى مميزات عضوية أو نفسية تتعلق بالمجرم ذاته، رغم عدم إنكار دور العوامل الخارجية المحيطة بالمجرم في تكوين شخصيته الاجرامية.

- إن ما جاءت به نظرية لومبروزو من تشبيه المجرم بالإنسان البدائي، لا أساس له لأنه لم يثبت أن لومبروزو قام بدراسة تاريخ البشرية حتى يعطي فكرة عن الإنسان البدائي، وحتى العلم الحديث لم يتوصل إلى رسم صورة للإنسان البدائي، ومن ثم لا يمكن القول أن الانسان الذي يحمل سمات الانسان البدائي هو إنسان مجرم.

- أن التسليم بفكرة الانسان" المجرم بالفطرة " تتعارض مطلقا مع مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، فكيف يمكن عقاب شخص لم يرتكب جرما لا لشيء إلا لكونه يحمل صفات المجرمين.

2- نظرية التحليل النفسي (نظرية فرويد)

اهتمت هذه النظرية في تفسير الظاهرة الإجرامية بالجانب النفسي للمجرم، وغلبت العوامل المرتبطة بالتكوين النفسي للمجرم، على التكوين العضوي أو العوامل الخارجية والاجتماعية المحيطة بالمجرم، ويعد عالم النفس الشهير" فرويد" رائد نظرية التحليل النفسي.

أ) – مضمون نظرية فرويد:

درس فرويد تأثير التكوين النفسي للفرد على سلوكياته، وخاصة السلوكيات الاجرامية، وقسم فرويد النفس البشرية إلى ثلاث أقسام: النفس والعقل والضمير.

- **النفس (الأنا الدنيا):** أطلق عليها فرويد اسم " النفس ذات الشهوة" وفيها تستقر الميول الفطرية والنزعات الغريزية وموضعها ما وراء الشعور، فيها يتركز الاهتمام على إشباع الرغبات والشهوات دون مراعاة للقيود الاجتماعية التي تفرضها المبادئ والقيم السائدة في المجتمع؛ فإذا كانت الغريزة الجنسية مثلا تتطلب إشباعاً فإن الشخص إما يختار الطريق السوي لإشباع هذه الرغبة فيكون سلوكه متماشيًا مع المبادئ والقيم الاجتماعية فيشبعها عن طريق الزواج، أو عليه أن يكبت هذه الغريزة ويتحكم فيها، أو أن يختار الطريق غير السوي فيرتكب جريمة من الجرائم المخلة بالحياء.

- **العقل (الأنا):** وهي ما أطلق عليها فرويد اسم " الذات الشعورية" وموضعها الجانب الشعوري للإنسان والذي هو على صلة دائمة بالواقع؛ لأن العقل يمثل الجانب الواعي والمدرك في النفس البشرية، وتكمن الوظيفة الأساسية للأنا في محاولة التوفيق ما بين الميول والرغبات الغريزية، وبين احترام القيم والعادات السائدة في المجتمع، وكأن دور الأنا يكمن في تهذيب النفس البشرية وجعلها تتماشى من مبادئ وقيم المجتمع.

- **الضمير (الأنا الأعلى):** تسمى أيضا بالذات المثالية لأنها تمثل الجانب المثالي للنفس البشرية، حيث تتركز فيها المبادئ والقيم الأخلاقية المستمدة من الأديان السماوية والمتوارثة عن الأجيال السابقة، وتتمثل وظيفة الأنا الأعلى في أنها تمد العقل (الأنا(بالقوة اللازمة لردع الميول والنزعات الغريزية التي تتسلل من الأنا الدنيا، وتمارس هذه الوظيفة عن طريق تأنيب الضمير وإشعاره بالذنب كلما سمح بتغليب الغرائز والشهوات على مقتضيات الحياة الاجتماعية.

وفسر فرويد السلوك الإجرامي بأحد أمرين :

- إما إخفاق العقل" الأنا "عن تهذيب النفس" الأنا الدنيا "وعدم قدرته على تحقيق التوافق ما بين الشهوات والنزعات الغريزية وبين القيم والمبادئ السائدة في المجتمع.

- أو انعدام الضمير" الأنا العليا " أو عجزه عن ممارسة وظيفته في السمو بهذه الشهوات والنزعات الغريزية وذلك لعدم قيامه بتأنيب العقل" الأنا" وتهذيبه.

وفي الحالتين فإن هذه النزعات الغريزية تتسلل من منطقة اللاشعور إلى منطقة الشعور دون أي احترام أو تقيد بالقواعد والضوابط الاجتماعية والأخلاقية المتبعة، ومن بين الصور النفسية التي توصل إليها فرويد نجد "عقدة الذنب وعقدة أوديب".

ب) – تقييم نظرية فرويد

رغم الجانب المشرق لهذه النظرية في دراستها الحالة النفسية للمجرم ومعرفة العوامل النفسية الكامنة وراء الظاهرة الاجرامية، إلا أنها لم تسلم من الانتقادات، ومن بين ما وجه لها من انتقادات نجد:

- أرجعت هذه النظرية كل عوامل السلوك الاجرامي للعامل النفسي، وأهملت العوامل الأخرى العضوية والاجتماعية.
- ليس صحيحاً أن ضعف الضمير أو الأنا الأعلى يقود حتماً إلى ارتكاب الجريمة، فهناك من الناس من يضعف ضميرهم ولكنهم لا يقدمون على ارتكاب الجريمة.
- إن المنطق الذي انطلقت منه النظرية النفسية باعتبار أن جميع المجرمين يتميزون بالقسوة وغلظة القلب وانعدام العواطف بسبب تخلف الأنا الأعلى وسيطرة الأنا الدنيا، وهذه النتيجة لا يمكن التسليم بها فالدراسات أثبتت أن هذه الصفات لا تصدق على كافة المجرمين.
- تفتقد هذه النظرية للمنهج العلمي الخاص، كون المنهج الذي استعملوه هو المنهج التجريبي المطبق في العلوم الطبيعية وهو منهج لا يتلاءم مع دراسة النفس البشرية التي تختلف عن المادة في المنهج التجريبي.
- كل ما قيل في هذه النظرية يبقى مجرد فرضيات تحتمل الخطأ، فلا وجود لمقياس محدد يضبط مدى صحتها أو خطئها.